@Tafsircenter

ميشيل كويبرس
Michel Cuypers

الكتاب المقدس والقرآن

نسق أدبي واحد

ترجمة: عبيرعدلي

www.tafsir.net

مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center For Qur'anic Studies

المعلومات والآراء المقدَّمة هي للكتّاب، ولا تعبّر
بالضرورة عن رأي الموقع أو أسرة مركز تفسير

نبذة تعريفية بميشيل كويبرس (Michel Cuypers):

ميشيل كويبرس هو رجل دين كاثوليكي، من أتباع شارل دو فوكو، عاش في مصر منذ العام ١٩٨٩ كعضو في المعهد الدومينيكي للدراسات الشرقية (IDEO)، وتخصّص في الدراسة الأدبية للنصّ القرآني، لا سيما فيما يتعلق بتركيبه وبعلاقاته النصية مع الأدب المقدّس المتقدم تاريخيًّا.

من أهم أعماله:

- La Composition du Caran. Nazm al-Qur'ân, Paris, Gabalda, 2012.

في نظم القرآن. وهو مترجم للعربية، ترجمه: عدنان المقراني وطارق منزو، وصدر عن دار المشرق، لبنان، ٢٠١٨.

- Le Festin, une lecture de la sourate al-Mâ'ida, Lethielleux, 2007.

في نظم سورة المائدة؛ نظم آي القرآن في ضوء منهج التحليل البلاغي. وهو مترجَم للعربية، ترجمه: عمرو عبد العاطي صالح، وصدر عن دار المشرق، عام ٢٠١٦.

مقدمة[1]:

هذه المقالة هي نصّ ورقة ألقاها ميشيل كويبرس في مؤتمر عُقِد بالسفارة البلجيكية في القاهرة عام ٢٠١٠، يحاول فيها تقديم صورة ملخّصة لمنهجية التحليل البلاغي السامي-والتي تتمثل في تحليل النصّ وفقًا لقواعد البلاغة السامية- ولكيفية تطبيقها على القرآن، والنتائج التي يمكن الخلوص لها عَبر هذا التطبيق.

وكويبرس يعرض هنا طريقته لا عَبر سرد المصطلحات الفنية والتقنيات المنهجية والبناء النظري لمنهجيته، بل يعرضها عبر ذِكر عدد من الأمثلة التطبيقية التي استعمل فيها هذه المنهجية؛ مثل سورة الفاتحة، وسورة يوسف، وآيات من سورة المائدة. وهذا من أجل إبراز تماشي هذه السور والآيات مع منطق البلاغة السامية في تركيب الخطاب، وكذا من أجل محاولة إبراز الاختلاف بين النتائج التي يتم الوصول إليها عبر هذه المنهجية من جهة، وتلك التي يتم الوصول إليها عبر التفسيرات الكلاسيكية وأدواتها المفوَّتة في نظره للالتفات لبنية النصّ الداخلي من جهة أخرى.

(١) قام بكتابة المقدمة وكذا التعريف بالأعلام الواردة في نصّ الترجمة مسؤولو قسم الترجمات بموقع تفسير، وقد تم تمييز حواشينا بأن نصصنا بعدها بـ(قسم الترجمات).

كما يحاول كويبرس من خلال هذه الأمثلة عرض بعض مساحات التناصّ بين النصّ القرآني والكتاب المقدّس، في محاولة لإبراز ما تستطيع تقديمه تقنية التحليل البلاغي في إبراز علاقات مغفول عنها بين القرآن وما سبقه مِن كتب مِن شأنها إيضاح الكثير من مساحات النصّ المهمّة التي لا تبين عند الإصرار على تجاهل هذه السياقات.

ويظلّ الهدف الأشمل لعرض كويبرس منهجيته في هذه الورقة هو هدفه الدائم بمحاولة إبراز البنية الخاصّة للنصّ القرآني والبلاغة الخاصّة التي كتب وفقهَا، والتي يؤدي تفويت الوعي بها إلى اعتبار القرآن نصًّا مفككًا بلا رابط كما قال فولتير، في حين يدحض الوعي بها كلّ هذه المزاعم.

وتأتي أهمية نشر هذه المادة ضمن هذا الملف، من كونها تشمل تطبيقًا عمليًّا لهذه المنهجية، وبيانًا تطبيقيًّا لنتائجها ورهاناتها؛ ما يتيح للباحثين وعيًا أدقّ بها وقدرةً أكبر على تقييم بنائها المنهجي.

المقالة[1][2]

يحمل هذا الطرح -كما يبدو من عنوانه- طابعًا أدبيًّا؛ ففي الواقع هناك العديد من المقاربات التي يمكن توسّل معالجة القرآن من خلالها، يأتي بالطبع في مقدمتها المقاربة ذات الطابع الإيماني -التي يمارسها المسلمون عادة- والتي تتخذ من جانبهم نمطًا تبريريًّا دفاعيًّا في مواجهة غير المسلمين أو حتى نمطًا سياسيًّا وأيديولوجيًّا، أو تتخذ شكلًا جدليًّا وعدوانيًّا من جانب غير المسلمين. وبحثُنا هذا لا يندرج بالطبع تحت أيٍّ من هذه الأُطر؛ فعن المنهج الإيماني، يمكنني القول: إنّ بحثي هذا يتموضع فيه لكن بشكلٍ أقلّ، فأنا أقرأ نصّ القرآن حقًّا بكاملِ الاحترام الذي ينبغي لكتاب يُعتبر مرجعية عقدية لمليار ونصف المليار من المسلمين، إلّا أنني أقرأ هذا الكتاب المقدّس بوصفه عملًا لا ينفصل عن التراث الأدبي العالمي، وأحاول فهمه مستعينًا بالأساليب العلمية الحديثة للتحليل الأدبي والنصّي، دون أن أغفل كذلك عن إسهامات التراث التفسيري الإسلامي؛ القديم منه أو المعاصر. وهذه هي المقاربة التي كان يبتغيها المفكر المصري الكبير طه حسين، خلال النصف الأول من القرن العشرين.

(١) من محاضرة أُلقيت في السفارة البلجيكية في القاهرة، في الثامن من ديسمبر عام ٢٠١٠.

(٢) مترجِم هذه المادة: عبير عدلي، مترجمة، لها عدد من الترجمات المنشورة.

وسأبدأ أولًا موضحًا لماذا تصعب -من وجهة نظرنا- قراءة القرآن، وكيف أن الاستعانة بتفسير الكتاب المقدّس مَكّنَتْنِي بعضَ الشيء من فهم بنية النصّ القرآني ومن ثم فهم معانيه. لقد قام عملي على تقنية منهجية لن أتطرق إليها إلّا على قدر الحاجة وبما يكفي لِأَنْ أعطيكم فكرة عنها[١]، حيث أعتقد أن أكثر ما يعنيكم في الأمر هو النتائج الملموسة التي يمكن أن تُفْضِي إليها هذه التقنية من أجلِ فهمٍ أفضل للنصّ القرآني. وسأدعم هذا البحث ببعض الأمثلة من الآيات القرآنية التي تثير -لسبب أو لآخر- بعض التساؤلات التي لها أثر مباشر على العلاقات بين الإسلام من جهة والمسيحية واليهودية من جهة أخرى.

(١) للاطلاع على توصيف نظري لمنهجية كويبرس، وكذلك للاطلاع على خيارات تعريب مصطلحات كويبرس وتوضيح دلالة النظم عنده وصوره، مما يفيد المطّلِع في تتبع هذه المادة التطبيقية، تنظر المقالة الافتتاحية في هذا الملف «البلاغة الساميّة في القرآن» ميشيل كويبرس، ترجمة: خليل محمود اليماني، على هذا الرابط:

https://tafsir.net/translation//٤٥

خصوصًا الهامش (٣) ص١٢، ١٣، كذا الهامش (١) ص ١٥، (قسم الترجمات).

أولًا: لغز النَّظم القرآني:

كنت أقول: إنه ليس من السهل قراءة القرآن الكريم، وقد أقرّ بذلك المفكر الإسلامي الجنوب إفريقي (فريد إسحاق)[١] عندما قال: «إنّ القرآن كتاب من الصعب سبر أغواره بالنسبة لمَن هم (غريبون عنه)، وحتى بالنسبة للكثير من المسلمين الذين يرغبون في قراءته فقط»[٢]. ومما لا شكّ فيه أن إحدى هذه الصعوبات الكبرى لهذه القراءة تنشأ عن الطبيعة التجزيئية أو حتى التركيبية لهذا الكتاب؛ فهو لا يتكون فحسب من عددٍ كبيرٍ من السور التي تصل إلى ١١٤ سورة بالتحديد، ذات أطوال متفاوتة قد تمتد من سطور قلائل لتصل إلى ستين صفحة، بل تتنوع وتتتابع الموضوعات في أثناء هذه الفصول أو (السور)، حتى لا يمكننا أن ندرك دائمًا الرابط المنطقي الذي يربطها ببعض. وفي خضم هذه السور، يُعَدّ الترتيب الوحيد الذي يمكن ملاحظته بسهولة هو الترتيب الكمّي

(١) فريد إسحاق (١٩٥٩)، كاتب وباحث وسياسي جنوب أفريقي، من مناهضي الفصل العنصري ومن دعاة المساواة، عمل مع (مانديلا) في إطار تجاوز سياسات عدم المساواة بين الجنسين، درس الدراسات الإسلامية في باكستان، وحاصل على الدكتوراه من جامعة برمنجهام، كما أكمل دراساته حول التأويل الكتابي في ألمانيا، وهو منذ الثمانينات عضو مهم في مؤتمر الأديان العالمي من أجل السلام، له عدد من الكتب حول الأديان والإسلام، منها: القرآن والتحرير والتعددية؛ منظور إسلامي للتضامن بين الأديان ضد الاجتهاد، ١٩٩٧. أن تكون مسلمًا؛ إيجاد طريق ديني في العالم اليوم، ١٩٩٩. القرآن؛ مقدمة قصيرة، ٢٠٠٢. (قسم الترجمات).

(٢) Esack Farid, *Coran, mode d'emploi*, Albin Michel, Paris, 2003, p. 281.

البحث؛ حيث تم ترتيب السور في واقع الأمر وفقًا للطول، بدءًا بالأكثر طولًا ثم الأقصر فالأقصر، وحتى هذا الترتيب لم يتم التقيد به بصورة كاملة؛ أو بعبارة أخرى، لا يسعنا على كلّ المستويات إدراك الأساس المنطقي لترتيب النصّ.

وقد استنتجتُ تدريجيًّا أن هذا الارتباك الذي يعترينا عند مطالعة القرآن يعود بصورة كبيرة إلى أننا لا نعلم كيف نقرؤه وفق شفرته الأدبية الخاصّة به، فنحن نقرؤه بعقلياتنا التي شكَّلها المنطق والبلاغة اليونانيان اللذان يشترطان في جودة النصّ أو الخطاب أن يتكوّن من مقدمة متبوعة بمقاربة خطيّة وتدريجية للموضوع وصولًا إلى خاتمة واضحة ومقنعة. ولكن النصوص السامية -ومنها القرآن- لا تخضع لهذه القَوْلَبة، وهذه هي طريقة النَّظْم السامي للنصوص التي أودُّ طرحها في خطوطها العريضة، وذلك باعتبارها إطارًا مرجعيًّا لقراءة النصّ القرآني.

وقد طَرَحَ مِنْ قَبْلُ علماءُ العرب في القرون الهجرية الأولى إشكاليةَ ترتيب أو نظم القرآن الكريم حينما انتشرت الثقافة اليونانية في العالم العربي على نطاق واسع، لكن دون أن يصلوا إلّا إلى بعض الاستنتاجات الجزئية، فقد لاحظوا غالبًا أنه كثيرًا ما تبدأ إحدى السور بنفس الفكرة التي توقفَت عندها السورة التي تسبقها، أو أن نهاية سورةٍ ما تتعلق ببداية نفس السورة. وقد أوضح عالم التفسير الباكستاني (أمين أحسن إصلاحي)[1] في نهايات القرن العشرين، أن أغلب السور

(١) أمين أحسن إصلاحي (١٩٠٤-١٩٩٧) أحد أبرز تلاميذ الإمام الفراهي، وأحد أهم رواد مدرسته الإصلاحية، وأشهر كتبه تفسيره الكبير «تدبر القرآن» المكتوب في تسعة مجلدات، والذي استغرق في كتابته =

القرآنية -إن لم تكن جميعها- تنتظم موضوعيًّا في مجموعات ثنائية (إمّا ترادفية أو تقابلية أو تكاملية)[١]. ولكن هذه الأمور ليست سوى بعض عناصر النظم التي لا تشكِّل بعدُ نظامًا حقيقيًّا، إذا ما افترضنا أن هناك نظامًا بالفعل[٢].

فعادةً ما تقوم تفاسير القرآن -على كثرتها- بشرح النصّ (كلّ آية على حدة) دون التطرق في أغلب الأحيان إلى السياق الأدبي المباشر للآية محلّ التفسير، بيد أنّا بتنا اليوم ندرك جيدًا خطورة اجتزاء النصّ عن سياقه. وقد أطلق الباحث الإسلامي المعاصر (مستنصر مير)[٣] على هذا النمط التفسيري: التفسير

=

اثنين وعشرين عامًا، وسار فيه على منهج شيخه في تتبع «نظام القرآن»، وله كتب أخرى؛ مثل: «حقيقة التوحيد»، «حقيقة الشرك»، «تزكية النفس»، وكلّ كتبه بالأردية، وهو مترجِم كتب الفراهي للُّغة الأردية. (قسم الترجمات).

(١) Voir Mustansit Mir, *Coherence in the Qur'ān, A Study of Iṣlāhī's Concept of Naẓm inTadabbur-I Qur'ān*, American Trust Publications, Indianapolis, 1986, p. 75 et ss.

(٢) سوف تجدون دراسة أكثر تفصيلًا وهي (مسألة اتساق القرآن من خلال تاريخ التفسير) ملحقة بكتابي: Le Festin. Une lecture de la sourate al-Mâ'ida, Letheilleux, Paris, 2007، كما يمكن الحصول على الكتاب من مكتبة معهد العالم العربي في باريس، أو بسهولة أكثر من خلال الإنترنت على موقع أمازون.

وجدير بالنظر أن هذا الكتاب قد ترجمَته مؤخرًا دار المشرق تحت عنوان: «في نظم سورة المائدة؛ نظم آي القرآن في ضوء منهج التحليل البلاغي». (المترجم).

(٣) مستنصر مير (١٩٤٩-)، باحث باكستاني، أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة يونغستاون بالولايات المتحدة الأمريكية، تتركّز اهتماماته في دراسات القرآن والتفسير المعاصر، كما له اهتمام خاصّ بمحمد

=

الخطِّي-الذرّي، حيث يتم اعتبار الآيات بعضها بعد بعض كذرّات صغيرة مستقلة متوالية. وعوضًا عن شرح آيةٍ ما من خلال سياقها الأدبي، قام المفسرون بشرحها باستدعاء عاملٍ خارجي عن النصّ، وهذا ما يُعرف فنيًّا في التقليد الإسلامي بـ(أسباب النزول)، أي: ارتباط حدَثٍ من حياة النبي بـ(نزول) هذه الآية أو تلك، ومما يُصَعِّب الأمر هو أنّ كثيرًا من أسباب النزول هذه تبدو مصطنعة، وأنه قد تم إقحامها لاحقًا لإضفاء معانٍ على آيات قد تبدو غامضة بعض الشيء، كما أن السياق الأدبي المباشر للآية موضع التفسير يوجه إلى معانٍ أكثر ملائمة ودلالة في الكثير من الأحيان.

وقد حاول العديدُ من المفسرين المسلمين في القرن العشرين تجاوز مسألة تجزيء النصّ عن طريق البحث في كلّ سورة عن موضوعها الأساس، وأطلقوا عليه مسميات عدّة منها: ركيزة السورة أو محورها، وتلك محاولة جادّة تضفي على السورة وحدتها، ولكن ذلك لا يقدِّم بَعْدُ حلًّا لإشكالية نَظْم النصّ.

وإذا ما اتجهنا إلى الدراسات الغربية فإننا سوف نلاحظ أنها منذ بدايتها في منتصف القرن التاسع عشر ساد منهج النقد التاريخي على أبحاث المستشرقين

=

إقبال، من كتبه في هذا السياق: إقبال، ٢٠٠٦. و التماسك في نصّ القرآن، دراسة في مفهوم السورة عند الفراهي وإصلاحي، ١٩٨٦. فهم الكتاب المقدس الإسلامي؛ دراسة لمقاطع مختارة من القرآن، ٢٠٠٨. (قسم الترجمات).

الغربيين المتعلقة بالقرآن، وذلك بالتوازي مع بدايات التفسير الحديث للكتاب المقدّس؛ فقد كان يتم التسليم بتجزئة النصّ القرآني كحقيقة واضحة، وكان يتم البحث عن إنشاءِ تاريخٍ للنصّ القرآني من خلال تحديد التسلسل الزمني لمختلف أجزاء النصّ التي تشكِّل السور، وذلك عن طريق تغيّر الأساليب والموضوعات أو افتراض احتواء النصّ على (تناقضات)، وقد كان هذا المنظور -ولا يزال- مهيمنًا على البحوث الغربية.

إلّا أنه ومنذ العام ١٩٨٠ تبنَّى بعض الباحثين -من أمثال: (أنجيليكا نويفرت)[١]، و(نيل روبنسون)[١][٢]- وجهة نظر جديدة تمامًا: فعوضًا عن البدء

(١) أنجيليكا نويفرت (١٩٤٣-) من أشهر الباحثين الألمان والأوروبيين المعاصرين في الدراسات القرآنية والإسلامية. أستاذ الدراسات السامية والعربية في جامعة برلين الحرة، درست الدراسات السامية والعربية والفيلولوجي في جامعات برلين وميونيخ وطهران، عملت كأستاذ ومحاضر في عدد من الجامعات، مثل: برلين وميونيخ وبامبرغ، كما عملت كأستاذة زائرة في بعض الجامعات، مثل: جامعة عمان بالأردن، وجامعة عين شمس بالقاهرة.

ولها عدد من الكتابات والدراسات المهمّة في مجال القرآن ودراساته، من أهمها:

- القرآن كنصّ من العصور القديمة المتأخرة، مقاربة أوروبية، ٢٠١٠.
- دراسات حول تركيب السور المكية، ١٩٨١.
- النصّ المقدّس، الشعر، وصناعة المجتمع: قراءة القرآن كنصّ أدبي، ٢٠١٤.

وقد نشرنا ثلاث ترجمات لأنجيليكا نويفرت بعنوان: «الدراسات القرآنية والفيلولوجي التاريخي النقدي»، ترجمة: محمد عبد الفتاح، و«وجهان للقرآن: القرآن والمصحف»، ترجمة: حسام صبري، =

بفرضية كون النصّ مركّبًا وبالتالي البحث عن التسلسل الزمني للأجزاء، فقد انطلقوا من فرضية أن النصّ له وحدة وتماسك في صياغته النهائية والمعتمدة والتي يجب اكتشاف تركيبها؛ معتقدين أن معرفة تركيب النصّ من الممكن أن تفضي إلى فهمٍ سليم له.

=

و«عرض كتاب القرآن والكتاب المقدّس كنص ضمني له»، ترجمة: أمنية أبو بكر، يمكن مطالعتهم على هذه الروابط:

https://tafsir.net/translation//٤١
https://tafsir.net/translation/42/
https://tafsir.net/translation/37/

(قسم الترجمات).

(١) Voir Angelika Neuwirth, *Studien zur Komposition der mekkanischen Suren*, Walter deGruyter, Berlin/New York City, 1981. Neal Robinson, *Discovering the Qur'an. A Contemporary Approach to a Veiled Text, Georgetown University Press, Washington, 1996 (2e éd. 2003).*

(٢) نيل روبنسون (١٩٤٨-)، أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة ليدز، من أشهر أعلام الاتجاه السانكروني (التزامني) في قراءة القرآن.

ومن أشهر كتبه في هذا السياق كتاب: «اكتشاف القرآن، قراءة معاصرة لنص مقنع، ١٩٩٦». والذي درس فيه تركيب عدد من السور القرآنية المكية والمدنية، كما حاول فيه التأسيس نظريًّا لفكرة القراءة التزامنية للنصّ، والحجاج حولها.

وقد ترجمنا له دراسة بعنوان «بنية وتفسير سورة المؤمنون»، تنشر على قسم الترجمات ضمن هذا الملف «ملف الاتجاه التزامني»، (قسم الترجمات).

ومن جانبي فقد شرعتُ -وذلك عن طريق تطبيق منهج مستعار من دراسات الكتاب المقدّس- في تحليل النصّ القرآني وفقًا للمنظور الذي سأصفه فيما يأتي، ولن أتتبع تاريخ هذا المنهج الذي يعود إلى منتصف القرن الثامن عشر والذي لم يلقَ حفاوة سوى في نهاية القرن العشرين. إنّ هذا المنهج -الذي أسماه علماء الكتاب المقدّس (التحليل البلاغي)- يقوم على تحليل النصّ وفقًا للقواعد الخاصّة بالبلاغة السامية كما هي موجودة في الكتاب المقدّس، وكذلك في عدد من نصوص العصور القديمة في الشرق الأوسط ولا سيما في القرآن[١].

وبدلًا من شرح هذه النظرية بطريقة مجرّدة، سأنطلق على الفور من مثال بسيط ومهم جدًّا في نفس الوقت؛ حيث يتعلّق بسورة الفاتحة التي يتلوها المسلمون في صلاتهم عدّة مرات في اليوم كما في العديد من المناسبات الأخرى.

(١) يعتبر رولان مينيه، أستاذ التفسير التوراتي في الجامعة الغريغورية في روما، العالم الرئيس الذي يدرس نظرية التحليل البلاغي حاليًا. ولقد نشر أطروحة كبيرة بعنوان: -(Traité de rhétorique biblique) لوتيبلو، باريس- ٢٠٠٧.

ثانيًا: موجز البلاغة السامية من خلال سورة الفاتحة:

وها هو أولًا نصّ السورة كما هو في المصحف:

{بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}.

وعلى النحو الآتي يمكننا أن نبيِّن كيفية تركيب النصّ:

– ١ بِسْمِ اللهِ	الرَّحْمَنِ	الرَّحِيمِ
= ٢ الْحَمْدُ لِلَّهِ	رَبِّ	الْعَالَمِينَ
– ٣	الرَّحْمَنِ	الرَّحِيمِ
= ٤	مَالِكِ	يَوْمِ الدِّينِ

+٥أ	إِيَّاكَ	نَعْبُدُ
+٥ب وَ	إِيَّاكَ	نَسْتَعِينُ

– ٦ اهْدِنَا	الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ
– ٧أ صِرَاطَ	الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ
=ب غَيْرِ	الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ
=ج وَلَا	الضَّالِّينَ

تلاحظون على الفور تكرار العناصر: (الله-الرحمن -إيّاك -صراط) أو المترادفات: (رب/ ملك، والمنفيان في الآية السابعة بشقّيها ٧ب، ج) وهو ما يوحي بالتوازي[١]. فقد توجد هذه التوازيات بين مفصلين من النصّ مثل: (١-٢، ٥أ-ب، ٦-٧أ، ٧ب-٧ج)، أو على مستوى آخر في النصّ بين مجموعات من مفصلين والتي جرى العرف على تسميتها (فروع) مثل: الترادف بين الفرع (٣-٤) الذي يترادف ويتشابه جزئيًّا مع الفرع (١-٢)، وكذلك فإنّ فرع (٦-٧أ) الذي يذكر الصراط المستقيم متوازٍ ولكنه مضاد للفرع (٧ب-ج) التي يذكر طريق الضالّين.

ولا يقف الأمر عند هذا الحدّ؛ فبين المجموعتين المتطرفتين -وكلاهما مكوّنة من فرعين، وهو ما يطلق عليه (أقسام)- نجد توازيًا دلاليًّا، ومن ثَمّ فعَلَى مستوى ثالث من النصّ: فإنّ القسم الأول عبارة عن التماس العبادة لله ببعضٍ من أسمائه الحسنى، أما القسم الأخير فهو التماس العَوْن. فلدينا هنا قسمان متكاملان دلاليًّا، حيث إنّ العبادة والاستعانة هما المكونان الأساسيان للصلاة، وهذا هو ما عبّر عنه المقطع المحوري الصغير في النصّ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

(١) ردًّا على سؤال طُرِح على إثر المؤتمر، أؤكد على أن التوازي في البلاغة السامية لا يعني وجود اتساق إيقاعي أو مقطعي صارم بين آيتين، كما هو الحال بين أبيات الشعر الكلاسيكي، واليوناني، واللاتيني أو الغربي بشكل عام. إنما هي اتساقات دلالية عن طريق الترادف أو التضاد أو التكامل بين مفاصل ذات نمطٍ أكثر تحررًا من مفاصل أشعارنا الكلاسيكية.

نَسْتَعِينُ}، حيث يمثّل هذا الفرع المحوري انتقالًا مثاليًّا بين القسمين المتطرفين، حيث إنّ المفصل الأول يشير إلى سابقه والثاني يشير إلى لاحقه. وبإمكاننا القول: إنّ السورة في مجملها قد اتخذت شكلًا محوريًّا أو (دائريًّا)؛ فهناك قسمان متوازيان ومتكاملان يربطهما فرع محوري يعيِّن معناهما، وهذا الشكل الذي يمكن أن نرمز له بـ(أ\x\أ) يتردّد كثيرًا جدًّا في القرآن، وهو يظهر في أغلب الأحيان في صورة أكثر تعقيدًا، مثل: (أ.ب.ج\x\ج"ب"أ)، وسنرى أمثلة عليه فيما بعد.

ونخلص من مثال سورة الفاتحة إلى أمرين:

أولًا: أنّ النصّ القرآني قد بُني على مبدأ التناظر، والذي قد يتّخذ شكلًا متوازيًّا (متناظرًا أو متقابلًا أو متكاملًا) أو محوريًّا (والذي يتمثل في إدخال عنصر محوري بين عنصرين متوازيين).

ثانيًا: أنّ النصّ يتكون من عدّة مستويات نصية: (مفاصل، فروع، أقسام، مجموع السورة)، وكلّ مستوى منها ينبني على شكلٍ من أشكال التناظر.

وعليه فإنّ بنية هذا النصّ واضحة تمامًا ولا تثير فيما يبدو أيّ إشكال يذكر.

ومع ذلك فربما سمعتم من قبلُ أنّ المفصلين الأخيرين قد يقصد بهما اليهود في عبارة: {المغضوب عليهم}، والنصارى في: {الضالين}، وهذا هو التفسير

الشائع في معظم التفاسير وخاصّة ذائعة الصيت منها، كتفسير ابن كثير (المتوفى عام ١٣٧٣)، فماذا عسانا أن نفهم من ذلك؟

إنّ أول ما يدعونا لرفض هذا التفسير هو عدم وجود أيّ شيء في بقية النصّ (أعني في السياق الأدبي المباشر لهاتين الآيتين) يُلمح من قريب أو بعيد لا لليهود ولا للنصارى، كما أنّ الفاتحة هي أولى سور القرآن ومفتتحه، فلم يكن الأمر قد تطرّق بعدُ للحديث عن اليهود والنصارى. وإذا ما اطّلعنا أكثر على السياق، أي: على امتداد النصّ القرآني، سنجد أن التعبيرين محلّ الحديث قد ذُكِرَا في مواضع أخرى عديدة، ولكن لتصف كلّ أصناف البشر، وليس فقط اليهود والنصارى المنكّرين[١]. ويتبيّن من خلال ذلك أن هذا تفسير أيديولوجي مُغْرِض لا أساس له في النصّ، ولكنه شائع جدًّا للأسف، وقد أعرب بعض المفسّرين الكبار أمثال فخر الدين الرازي (المتوفي عام ١٢١٠) عن رفضهم الواضح لهذا التفسير وأنّ الألفاظ الواردة في الفاتحة ليست إلّا إدانة للآثمين والمنكرين بشكلٍ عام[٢].

---

(١) Voir le commentaire de la *Fâtiha* par de Theodor Khoury, dans sa trad. allemande duCoran: *Der Koran*, Gütersloher Verlagshaus, 1990, I, pp. 157-58.

(٢) تجدر الإشارة إلى أمرين:

الأول: تفسير المغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى هو تفسير نبوي كما هو معلوم، كما أنه خلافًا لما يصوره كويبرس-يبدو ظاهرًا جدًّا في القرآن وحديثه عن اليهود والنصارى، يقول ابن عطية في تعليقه على هذا التفسير: «ذلك بيّن من كتاب الله تعالى؛ لأن ذكر غضب الله على اليهود متكرّر فيه كقوله: =

ويقودني هذا -ونحن ما زلنا بصدد سورة الفاتحة- إلى مقاربة جانب آخر للسياق؛ فقد رأينا حتى الآن أنّ السياق فيما يتعلّق بالبلاغة السامية يقصد به البنية المعقّدة للتناظرات التي تندرج فيها الآية، ولكنه قد يصل للنصوص السابقة على القرآن لا سيما التوراة التي قد يكون للنصّ القرآني علاقة بها. ففي مواضع عدّة يصف القرآن ذاته بأنه جاء لاحقًا للكتب السابقة كالتوراة والإنجيل أو غيرهما (كالصحف الأولى)، وهذا يعني أننا لا نستطيع حقًّا فهم جميع دقائق النصّ القرآني دون ربطه بنصّ آخر من الكتاب المقدّس (أو غيره)، يتم التلميح إليه ضمنيًّا (وأحيانًا بشكلٍ صريح).

=

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ٦١، آل عمران: ١١٢]، وكقوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ﴾ [المائدة: ٦٠] فهؤلاء اليهود، بدلالة قوله تعالى بعده: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥] والغضب عليهم هو من الله تعالى، وغضب الله تعالى عبارة عن إظهاره عليهم محنًا وعقوبات وذلّة ونحو ذلك، مما يدلّ على أنه قد أبعدهم عن رحمته بعدًا مؤكدًا مبالغًا فيه، والنصارى كان محقّقوهم على شرعة قبل ورود شرع محمد ﷺ، فلما ورد ضلوا، وأما غير محقّقيهم فضلالهم متقرر منذ تفرقت أقوالهم في عيسى عليه السلام. وقد قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧] ». المحرر الوجيز، (١/ ٧٧).

الثاني: مَن حمل الآية على العموم وضعّف تقييدها باليهود والنصارى من المفسرين فقوله مشكل؛ لمصادمته لتفسير نبوي صريح؛ فإما يكون التفسير النبوي مخصّص للعموم كما نحا إليه البعض، أو يعتبر هذا التفسير مجرد مثال وفرد من أفراد العموم الداخل تحت لفظ الآية وليس تخصيصًا وتقييدًا لها وهو قول لبعض المفسرين. وأما ردّ التفسير النبوي بدعوى معارضته العموم فغير صحيحة. (قسم الترجمات).

وقد قام الباحث الباكستاني آنف الذكر (مستنصر مير) بنشر ورقة بحثية في ندوة أُقيمت العام الماضي في لندن، بعنوان: (قراءة القرآن في ظلال الكتاب المقدّس)، ويُعْرِب فيها عن امتعاضه من أن معظم المسلمين -ومنهم مفسرو القرآن- يتجاهلون الكتاب المقدّس، مما يمنعهم من استيعاب الكثير من التلميحات الخفية التي توضح معاني النصّ القرآني.

وهكذا فإنّ آخر سورة الفاتحة بالنسبة لقارئ الكتاب المقدّس يذكر حتمًا موضوع الطريقين، والذي هو موضوع تقليدي في الحكمة القديمة، والذي نجده في مواضع عديدة من الكتاب المقدّس (خاصّة في سفر التثنية) وبالأحرى في المزمور الأول الذي يعدُّ نصًّا ممهِّدًا -على غرار سورة الفاتحة- لمجموعة كبيرة من الصلوات ذات أطوال مختلفة، وهو سفر المزامير المذكور في القرآن نفسه (حيث تم ذكره عدّة مرات، وأقتبس من آياته واحدة على الأقل: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ}[الأنبياء: ١٠٥]، وهي اقتباس حرفي من المزمور ٣٧/ ٢٩.

وها هو نصّ المزمور الأول وفقًا لتركيبه:

أ – [1] طوبى **للرجل**

– الذي **لم** يسلك في مشورة **الأشرار**

= **وفي** *طريق* الخطاة **لم يقف**

= **وفي** *مجلس* **المستهزئين لم** يجلس

+ [2] لكن **في ناموس** الرب مسرته

+ **وفي ناموسه** يلهج نهارًا وليلًا

ب =[3] فيكون **كشجرة**

= **مغروسة عند مجاري المياه**

+ التي تعطي ثمرها في أوانه

+ وورقها لا يذبل

س وكل ما يصنعه ينجح

٤ ليس كذلك الأشرار

ب' = لكنهم *كالعاصفة*

= **التي تذريها الريح**

أ' – [5] لذلك **لا ينتصب في الدينونة الأشرار**

– ولا **الخاطئون في** *جماعة* **الأبرار**

+[6] فإن *الرب* عالم **بطريق الأبرار**

+ وإن إلى الهلاك *طريق* **الأشرار**.

ومن دون الخوض في جميع التفاصيل، فكما ترون إنّ هذا النصّ قد تركّب أيضًا من مجموعة من المتوازيات لكنها أكثر تعقيدًا من تلك الموجودة في الفاتحة بسبب طول النصّ. ويتبع نصّ المزمور برُمَّته نمطًا محوريًّا للنموذج (أ ب\x \ب' أ')، ويربط المحور بصورة واضحة ما بين الجانبين المتضادين: فالمفصل الأول هو اختتام للجزء الأول بينما المفصل الثاني يعدُّ تمهيدًا لما سيلحقه. وأسلّط الضوء هنا على التضاد بين (طريق الأشرار) و(طريق الأبرار)، والتعبير الختامي المشابه لذلك الذي يأتي في ختام سورة الفاتحة (وإن إلى الهلاك طريق الأشرار).

وهذا جدول للمقارنة، يبرز التقارب بين النصّين، والذي يتركّز في الآيتين الأخيرتين من سورة الفاتحة (٦-٧):

المزمور الأول
– [1] طوبى للرجل
– الذي لم يسلك في مشورة الأشرار
= وفي طريق الخطاة لم يقف
= وفي مجلس المستهزئين لم يجلس
+ [2] لكن في ناموس الرب مسرته
+ وفي ناموسه يلهج نهارًا وليلًا
=[3] فيكون كشجرة
= مغروسة عند مجاري المياه
+ التي تعطي ثمرها في أوانه
+ وورقها لا يذبل

– وكل ما يصنعه ينجح
– [4] ليس كذلك الأشرار

= لكنهم كالعاصفة
= التي تذريها الريح
ـ [5] لذلك لا ينتصب في الدينونة الأشرار
ـ ولا الخاطئون في جماعة الأبرار
+ [6] فإن الرب عالم بطريق الأبرار
+ وإن إلى الهلاك طريق الأشرار.

سورة ١، الفاتحة
– [1] بسم الله الرحمن الرحيم
= [2] الحمد لله رب العالمين
– [3] الرحمن الرحيم
= [4] ملك يوم الدين

+ [5] إياك نعبد
+ [6] وإياك نستعين

ـ [6] اهدنا الصراط المستقيم
ـ [7] صراط الذين أنعمت عليهم
= [6] غير المغضوب عليهم
= [6] ولا الضالين.

لم يتطرق أحد في تفسيرات الكتاب المقدّس إلى تحديد هوية هؤلاء الخاطئين أو الأشرار، فالجدير باهتمام البشر هو معرفتهم بحتمية اختيار أحد الطريقين: طريق الخلاص الذي يسلكه الصالحون، أو طريق الهلاك الذي يسلكه الأشرار. وأمّا وصف الطريقين فإنّ بقية نصّ المزمور يتكفّل ببيانه بعد ذلك، وهو ذات الحال كذلك في القرآن، فإن سائر النصّ يبين ماهية الطريقين اللذَيْنِ تم ذكرهما في الفاتحة. وهكذا ومن خلال هذا الطرح يمكننا -على ما أظنّ- تحييد التأويل الشائع والأيديولوجي لسورة الفاتحة، للوصول بها إلى معنى أكثر عمقًا وشمولية.

كما نرى أن موضع العلّة هنا ليس النصّ القرآني ولا العقيدة الإسلامية بأيّ شكلٍ من الأشكال، ولكنها بعض تلك التفسيرات التي لا طائل من ورائها ولا أساس لها في النصّ، لا في سياقه الداخلي أو الخارجي.

وسيساعدنا مثال آخر من السورة ١٢ (سورة يوسف) على تحديد جوانب أخرى لدراسة النصّ القرآني تتعلق بسياقه الداخلي والخارجي.

ثالثًا: السورة الثانية عشرة (يوسف):

تعتبر سورة يوسف -على الرغم من أسلوبها البياني المماثل لسائر القصص القرآني- هي السورة الوحيدة التي أعادت تناول قصة مكتملة من العهد القديم، فقد سُردت قصة النبي يوسف في ١١١ آية قرآنية بينما شغلَت الثلاثة عشر فصلًا الأخيرة من سفر التكوين. ويُظْهِر التحليل البلاغي[١] نَظْم سورة يوسف في اثنتي عشرة سلسلة تم ترتيبها بطريقة معكوسة، ويبين هذا النظم المعكوس النوع الثالث من النظم المستخدم في البلاغة السامية جنبًا إلى جنب مع النظم المتوازي والنظم المحوري اللذَين سبق وتناولناهما، ولا يختلف هذا الأسلوب عن الأسلوب المحوري سوى في غياب المحور.

(١) On trouvera l'analyse détaillée du texte de la sourate « Joseph » dans M. Cuypers, «Structures rhétoriques dans le Coran. Une analyse de la sourate 'Joseph' sourate brèves», dans MIDÉO (Mélanges de l'Institut Dominicain et de quelques d'Études Orientales) 22, 1995, pp. 134-191.

سورة يوسف:

أ- استهلال (الآيات ١-٣)

ب- رؤيا يوسف (الآيات ٤-٧)

ج- خلافات يوسف مع إخوته- كيد الإخوة بيوسف (الآيات ٨-١٨)

د- تمكين نِسبي ليوسف (الآيات ١٩-٢٢)

هـ- مراودة المرأة ليوسف (الآيات ٢٣-٣٤)

و- يؤوِّل يوسف في السجن رؤى السجينين **ويدعو إلى التوحيد** (الآيات ٣٥-٤٢)

و"- يُؤوِّل يوسف في السجن رؤيا الملك (الآيات ٤٣-٤٩)

هـ"- افتضاح مراودة المرأة - ردّ الاعتبار ليوسف (الآيات ٥٠-٥٣)

د"- تمكين تامّ ليوسف (الآيات ٥٤-٥٧)

ج"- خلافات يوسف مع إخوته: كيد يوسف بإخوته (الآيات ٥٨-٩٨)

ب"- تحقق رؤيا يوسف (الآيات ٩٩-١٠١)

أ"- خاتمة (الآيات ١٠٢-١١١)

وفي نهاية الطرف الأول من السورة (أي: بالقرب من مركز النظم المحوري) برزت واقعة لا نجدها في النصّ الموازي من الكتاب المقدّس، ففي أثناء تواجد يوسف في السجن قد استعان به رفيقاه في تأويل أحلامهما، ولكن قبل تأويله

لتلك الأحلام وجَّه لهما خطابًا موجزًا عن التوحيد على الطريقة القرآنية الخالصة ودعاهما إلى ترك أوثانهم والإيمان الحقيقي بالله وحده (الآيات ٣٧-٤٠).

ـ [٣٧أ] إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله

ـ [ب] وهم بالآخرة هم كافرون

ـ [٣٨أ] واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب

+ [ب] ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء

= [ج] ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس

* [د] ولكن أكثر الناس لا يشكرون

* [٣٩أ] يا صاحبي السجن

* [ب] أأرباب متفرقون خير

* [ج] أم الله الواحد القهار؟

ـ [٤٠أ] ما تعبدون من دونه إلّا أسماء

ـ [ب] سميتموها أنتم وآباؤكم

= [ج] ما أنزل الله بها من سلطان

= [د] إن الحكم إلا لله

+ [هـ] أمر ألّا تعبدوا إلا إيّاه

= [و] ذلك الدين القيم

* [ز] ولكن أكثر الناس لا يعلمون

ويهيمن التضاد على الجزء بكامله: {ملَّة قوم لا يؤمنون بالله} (٣٧أ) و{الدِّين القيِّم} (٤٠و).

ويبدو التناظر جليًّا في نهايات الفروع لكلّ قسم من الأقسام الطرفية: فالمفصلان الأَولَيان (٣٨ب و ٤٠هـ) يأمران كلاهما بعبادة الله وحده، أمّا (٣٨ج و ٤٠و) فيبدآن باسم الإشارة {ذلك} متبوعًا بالمترادفات الآتية: {فضل الله (علينا وعلى الناس)} الذي لا يقصد به إلا هبة {الدّين القيم}، وأمّا المفصلان (٣٨د و ٤٠ز) فهما جملتان متطابقتان تنعيان على أكثر الناس كفرهم.

ويمكننا قراءة هذين القسمين الطرفيَّيْن على التوالي، فهما متكاملان: ففي القسم الأول يحكي يوسف مساره الروحي، أمّا في القسم الأخير فهو يدعو رفيقَيه في السجن أن يسيرَا على دربه، ولكن سياق الخطاب قد تخلّله قسم محوري صغير له سمات عديدة واضحة:

١. أنه سؤال، والحال أن مركز التراكيب المحورية في البلاغة السامية غالبًا ما يصطبغ بالسؤال الذي يدعو القارئ أو المستمع إلى التفكر واتخاذ موقفٍ ما.

٢- أن السؤال هنا عن جوهر العقيدة الإسلامية: {أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد}؟

ودائمًا ما يكون للمحور في البلاغة السامية أهمية خاصّة، فهو مفتاح الفهم والتفسير لكامل النصّ الذي يتمحور حوله.

وتتمحور قصة يوسف في الكتاب المقدّس حول معضلة العلاقات الأخوية: ففي بداية سفر التكوين تُظهِر قصة قابيل -وهي قصة القتل الأولى- انقطاع العلاقة الأخوية بسبب الغيرة، وفي نهاية الكتاب وردت قصة يوسف كي تُظهر على النقيض من ذلك (صناعة الإخاء) «وهو ما أطلقه المفسّر البلجيكي (أندريه وينين) وجعله عنوانًا جميلًا لكتابه عن قصة يوسف»[(١)]، صناعة الإخاء بالغفران والمصالحة. وهذا الجانب لم يغب عن القصة القرآنية ولكنه ليس رئيسًا: فمركزية خطاب التوحيد ليوسف جعلت منه نبيًّا للتوحيد ممهِّدًا السبيل للنبي محمد.

ويدفعني هذا المثال إلى إبداء رأيي في العلاقة بين القرآن والكتاب المقدّس كما ارتأيتها أنا وغيري من الباحثين المعاصرين؛ فقد تردّد في بعض الأدبيات التي أثارت جدلًا قلَّ أو كثر: أن القرآن يستنسخ الكتاب المقدّس أو يتأثر به أو يستعير منه أجزاء من هنا وهناك، وهم يشيرون ضمنًا إلى أنّ القرآن ليس إلّا انتحال رديء من الكتاب المقدس. وقد أوضحتُ آنفًا أنه يصعب علينا حقًّا فهم

(١) André Wénin, Joseph ou l'invention de la fraternité: Lecture narrative et anthropologique de la Genèse 37-50, éditions Lessius, Bruxelles, 2005.

بعض مقاطع من القرآن بكلّ ما تحويه من ثراء إذا لم نقم بربطها بنصّ الكتاب المقدس المُشار إليه ضمنًا بدرجات متفاوتة. وبالتالي، لا يفتأ القرآن يقوم في واقع الأمر إلا بذلك الأمر الذي قامت به النصوص المختلفة التي كوَّنت الكتاب المقدّس؛ فجميعها تُعيد قراءة النصوص السابقة عليها، ولكن مع إعادة توجيهٍ للمعطيات القديمة بما يتوافق واللاهوت الخاصّ بها؛ فإذا تأملنا في قصة عبور البحر الأحمر في سفر الخروج، نجد أن هذه القصة قد تخلّلت الكتاب المقدّس كلّه لكن مع شيء من التغير؛ فقد استخدمها أشعياء للإعلان عن العودة من المنفى، كما ذُكرت في العهد الجديد لتعبّر عن موت يسوع وقيامته، وأيضًا للتعبير عن التعميد المسيحي. فالعهد الجديد لم يلبث إلّا أن يعيد قراءة وتفسير العهد القديم، وعلى ذلك فقد وجب عند إعادة القراءة أن ننتبه دائمًا إلى أوجه التشابه والاختلاف، وهكذا يجب عند إعادة قراءة القرآن لمعطيات الكتاب المقدّس أن ننتبه إلى الأشباه والفروق، فالأشباه تظهر مدى انغماس القرآن في نصّ الكتاب المقدّس، والفروق تبين كيف أن القرآن يعيد تأويل هذه النصوص وفقًا للاهوته الخاصّ. ويقدّم مثال سورة يوسف الدليل الواضح على ذلك؛ ففي القرآن يصبح يوسف نبيًّا للتوحيد، وهو ما لم يُذكر أبدًا في الكتاب المقدّس.

رابعًا: الآيات ٤٨ و٦٩ من السورة الخامسة:

تقدم سورة (المائدة) وهي السورة الخامسة في القرآن والتي حللتُها تفصيليًّا في كتابي (Le Festin) عددًا من الآيات المحورية المثيرة للدهشة، والتي تبدو متناقضة في بعض الأحيان مع الآيات المحيطة بها في نفس التركيب الإجمالي، حيث تأتي هذه الآيات المحورية على هيئة مبادئ عامة تتّسم بالانفتاح والتسامح وتتباين مع الآيات الملحقة بها والتي تتسم في معظم الأحيان بالصرامة في المسائل التشريعية والتزَمّت التّام فيما يختصّ بالمسائل الدينية، وهنا تكمن المفارقة التي أظنّ أنه بإمكان البلاغة السامية أن تقدّم أفكارًا واضحة بشأنها. وسأكتفي منها هنا بتقديم مثالين، وهما آيتان مهمتان للغاية في العلاقة بين الإسلام والمسيحية واليهودية، وكثيرًا ما تُذكر الآية الأولى في اللقاءات الخاصّة بحوار الأديان، وها هي الآية مدرجة في التركيب الذي تحتل المركز منه (المائدة: ٤٨-٤٩).

٤٨أ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق، ب مصدقًا لما بين يديه من الكتاب، ج ومهيمنًا عليه.
ج فاحكم بينهم بما أنزل الله، د ولا تتبع أهواءهم، هـ عمّا جاءك من الحقّ

+ ٤٨و لكلّ جعلنا منكم	شرعةً ومنهاجًا
= ز ولو شاء الله لجعلكم	أمة واحدة
ـ ح ولكن ليبلوكم فيما آتاكم	
ـ ط فاستبقوا الخيرات	
= ي إلى الله مرجعكم جميعًا	
+ ك فينبئكم بما	كنتم فيه تختلفون

٤٩أ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ب ولا تتبع أهواءهم ج واحذرهم أن يفتنوك
د عن بعض ما أنزل الله إليك هـ فإن تولوا و فاعلم أنما يريد الله يصيبهم
ببعض ذنوبهم ز وإن كثيرًا من الناس لفاسقون
٥٠أ أفحكم الجاهلية يبغون ب ومن أحسن من الله حكمًا ج لقوم يوقنون

تُبَيّن الأجزاء الطرفية من المقطع (٤٨أ-هـ و٤٩-٥٠) إشكالًا تاريخيًّا ظرفيًّا بامتياز، وهو: كيف يَحكم النبيّ بين أهل الكتاب (من اليهود والنصارى) الذين يعيشون في المدينة الإسلامية الناشئة.

وعلى النقيض من ذلك، فإنّ الجزء المحوري (٤٨و-ك) يضفي طابعًا لاهوتيًّا وأخرويًّا عامًّا على التعددية الدينية التي ترجع أصولها إلى الإرادة الإلهية الحكيمة (و-ز)، هذه التعدّدية التي لن يتكشّف لنا مغزاها إلا عند رجوعنا إلى الله (ي-ك)، فنحن في هذه الحياة -التي نحياها كاختبار من الله (ح)- لا سبيل للنجاة أمامنا إلا بالتسابق في الأعمال الصالحة (ح-ط). ولسنا بحاجة للتأكيد على أهمية وواقعية هذه الآية، فمن اللافت للنظر أن هذا المبدأ اللاهوتي الممتد عبر التاريخ يحتلّ محور المقطع، ومن الواضح أنه يهدف إلى بيان ظرفية بعض التعاليم التي أُمر بها النبي، وأنها ذات سياقات خاصّة ترتبط بوضعية تأسيس المجتمع المسلم لا غير. إن بنية النصّ تدعونا إذًا إلى التمييز بوضوح بين مستويين دلاليّين؛ أولهما: مبدأ عامّ دائم، وذلك في محور المقطع، وثانيهما: اعتبارات تاريخية وطارئة، وذلك في ملحقاتها.

وقد رأى المفكر الإصلاحي (فضل الرحمن- المتوفى عام ١٩٨٨) في هذه الآية المحورية الحلَّ النهائي الذي قدّمه القرآن لإشكال عالَمٍ ذي مجتمعات متعدّدة حيث قال: «وتكمن القيمة الإيجابية لاختلاف الأديان والمجتمعات إذًا في قدرتها على التنافس فيما بينها على فعل الخير: {فاستبقوا الخيرات}»[(١)]. ويبرهن التحليل البلاغي لهذا النصّ بشكلٍ كبيرٍ على هذا التأويل.

(١) Fazlur Rahman, *Major Themes of the Qur'ân*, Biblioteca Islamica, Minneapolis-Chicago, 1980, p. 167.

الآية ٦٩ من سورة المائدة:

٦٥أ ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا ۛ لكفرنا عنهم سيئاتهم ۚ ولأدخلناهم جنات النعيم
٦٦أ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل ۛ وما أنزل إليهم من ربهم ۚ لأكلوا من فوقهم ومن
تحت أرجلهم ۘ منهم أمة مقتصدة ۖ وكثير منهم ساء ما يعملون
٦٧أ يا أيها الرسول بلِّغ ما أنزل إليك من ربك ۛ وإن لم تفعل ۚ فما بلَّغت رسالته ۘ
والله يعصمك من الناس ۗ إن الله لا يهدي القوم الكافرين.
٦٨أ قل يا أهل الكتاب لستم على شيء ۛ حتى تقيموا التوراة والإنجيل ۚ وما أنزل
إليكم من ربكم ۘ وليزيدن كثيرًا منهم ما أنزل إليك من ربك ۗ طغيانًا وكفرًا ۙ فلا تأس
على القوم الكافرين.

ـ ٦٩أ إن الذين	آمنوا
ـ ب والذين	هادوا والصابئون والنصارى
= ج من	آمن بالله واليوم الآخر
= د وعمل	صالحًا
+ هـ فلا	خوف عليهم
+ و ولا هم يحزنون	

٧٠أ لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل ۛ وأرسلنا إليهم رسلًا ۚ كلما جاءهم رسول
ۘ بما لا تهوى أنفسهم ۗ فريقًا كذَّبوا ۙ وفريقًا يقتلون.
٧١أ– وحسبوا ألّا تكون فتنة ۛ فعموا وصموا ۚ ثم تاب الله عليهم ۘ ثم عموا وصموا كثيرٌ
منهم ۗ والله بصير بما يعملون

لا يسعني الآن دراسة هذا النصّ المهم بكلّ تفاصيله، وكذلك الآية ٦٢ من السورة الثانية (البقرة) والتي تعتبر تكرارًا حرفيًّا للآية ٦٩ من السورة الخامسة (المائدة). وأحيل في هذا الشأن إلى كتابي (Le Festin)، حيث كرّست له العديد من الصفحات.

وأُلمح فقط إلى أنّ الجزأين الطرفيَّين اللذَين يتوازيان ويتبع كلّ منهما الآخر يتباينان في نبرتهما عن نبرة الجزء المحوري الذي يقطع تتابع الأفكار. وتحمل الآية التاسعة والستون نفس الطابع اللاهوتي الممتد عبر التاريخ حيث تمنح الخلاص لليهود والنصارى، بينما تشير الأجزاء التي تحيط بها إلى أوضاع أو مواقف استثنائية تندرج في تقلبات التاريخ (الأجزاء الملونة باللون الوردي في الجدول أعلاه): {ولو أن أهل الكتاب آمنوا... ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل... وكثير منهم ساء ما يعملون} حيث يذكر القرآن تمرُّد وكُفران الكثير منهم؛ فهم يكذِّبون أنبياءهم ويقتلون بعضهم...إلخ.

وتشير محورية الآية ٦٩ إلى أهميتها، فهي مبدأ لاهوتي غرضه إيضاح تقلبات الأحداث الواردة في الآيات المحيطة بها.

وقد تحرّج المفسرون المسلمون من تفسير هذه الآية؛ فقد ارتآها بعضُهم -مثل (ابن كثير)- آيةً منسوخةً بغيرها من الآيات التي لا تمنح الخلاص سوى للمسلمين فقط[١]. ومن جانبه فقد كتب الإصلاحي الباكستاني (فضل الرحمن) قائلًا: «تسعى

(١) مثل الآية ٨٥ من السورة الثالثة (آل عمران): {ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يُقبَل منه وهو في الآخرة من الخاسرين}.

الغالبية العظمى من المفسّرين المسلمين بلا جدوى لإنكار المعنى الواضح للآيتين: (٦٢ من سورة البقرة، و٦٩ من سورة المائدة)، وهو أن من كان يؤمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا فهو من الناجين أيًّا كان جنسه»[١].

وتؤكد البلاغة السامية هنا أيضًا على هذا الطرح؛ لأنه يجب فهم الآيات الأخرى في ضوء الآيات المحورية، وليس العكس.

ويدعوني تفسير ابن كثير الذي يقضي باعتبار الآيتين: (٦٢ من سورة البقرة، و٦٩ من سورة المائدة) منسوختين إلى أن أعرِّج سريعًا على منهج النسخ في القرآن، فقد اعتمد الفقهاء لمواجهة الاختلافات أو بالأحرى التناقضات بين بعض الآيات، منهجًا تفسيريًّا يقضي باعتبار أن بعض الآيات القرآنية منسوخة (أي: غير قابلة للتطبيق) بآيات أخرى (ناسخة)، على اعتبار كونها أتت في ترتيب زمني لاحق للآيات الأولى (المنسوخة). وكثيرًا ما يستخدم الأصوليون المسلمون هذه الطريقة في يومنا هذا مدَّعِين أن الآيات الداعية لقتال غير المسلمين في السورة التاسعة (التوبة)، (وخاصة الآية ٢٩[٢] -آية السيف) تنسخ الآيات الأكثر تسامحًا الواردة بكثرة في السورة الخامسة (المائدة)، ولهذا السبب يصرِّحون بأن سورة التوبة تأتي لاحقة بالضرورة لسورة المائدة، بينما يظهر

(١) Fazlur Rahman, *Major Themes of the Qur'ān*, p. 166.

(٢) {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرِّمون ما حرَّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون}.

التحليل الدقيق لسورة المائدة أنها عبارة عن نصّ وصية خاتمة للرسالة المحمدية.

وقد بُني مبدأ النسخ في القرآن بشكل أساس على تأويل الآية ١٠٦ من سورة البقرة، ونصها: {مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا}[البقرة: ١٠٦].

ولكن السياق الكامل لهذه الآية لا يشير من قريب أو بعيد لأيّ تناقض بين آيات القرآن، فقد جاءت هذه الآية كجزء من جدال طويل مع اليهود الذين يلومون على النبي زعمه أنه تلقى وحيًا جديدًا وهو ليس من بين الشعب اليهودي المختار وأنه ذكَر آيات من التوراة وحرّفها عن مواضعها، وبالتالي بيّن الله في الآية ١٠٦ مقدرته على نسخ أو محو آيات من التوراة والإتيان بأخرى أفضل منها، والمقصود بذلك آيات القرآن. وقد اعترف العديد من المفسرين المحدَثين من أمثال: (سيد أحمد خان، وعبد الله يوسف علي، ومحمد أسعد وحتى المودودي)! بخطأ التفسير التقليدي للآية ١٠٦ من سورة البقرة ولكن من دون جدوى، فما زال هذا التفسير التقليدي سائدًا بشكلٍ كبيرٍ. وهذا نتاج مباشر لنهج التفسير التقليدي الذي أنكرته في البداية والذي يقوم على تفسير كلّ آية بمنأى عن غيرها دون الرجوع إلى سياقها الأدبي المباشر.

وإذا كان لا بد من التخلي عن اللجوء للنسخ كمنهج في تفسير القرآن، في رأيي على الأقل، وهو ما تبقى معه مسألة التناقضات بين بعض الآيات قائمة،

فإنه -وكما رأينا من قبل- يمكننا عبر التحليل البلاغي التمييز بين المستويات الدلالية المختلفة في النصّ، فالدلالات التي تحتلّ المحاور يكون لها صبغة أكثر عالمية وامتدادًا في التاريخ من تلك التي تكون محيطة بها والتي تكون لها ظرفيتها الخاصّة. وهذه الآيات الظرفية لا يجب اعتبارها منسوخة ولكن تُفهم في الإطار التاريخي لتأسيس المجتمع الإسلامي، دون أن نضفي عليها صفة الإطلاق والديمومة. وأشير هنا لرأي الأستاذ الراحل نصر أبو زيد (ت: ٢٠١٠) والذي يمكننا اعتباره وصيته الفكرية: «إنّ عدم التفرقة بين ما هو تاريخي وما هو دائم مستمر في دلالة النصوص الدينية يؤدي إلى الوقوع في كثير من العثرات والمتاهات»[١].

(١) Nasr Abou Zeid, *Critique du discours religieux*, Sindbad – Actes Sud, 1999, p. 72.

الخاتمة:

نفهم جيدًا في ضوء البلاغة السامية لماذا تبدو النصوص القرآنية وكذلك بعض نصوص الكتاب المقدّس غير متّسقة عند قراءتها على عادتنا في القراءة الخطية. أما التراكيب ذات البنى المحورية أو المعكوسة والتي تكاد أن تكون من الناحية العملية القاعدة العامة في مستويات النصّ العليا فتَعرض الأفكار وفقًا لترتيب هندسي وليس خطيًّا، مع وقفات متكرّرة وعودة للوراء وتكرارات، ومحور غالبًا ما يقوم فجأة بإقحام فكرة جديدة إن لم تكن حقًّا متناقضة.

وإن كان فولتير قد صرح في *قاموس الفلسفة* أن القرآن «عبارة عن منظومة بلا رابط، ولا ترتيب، ولا فنّ»؛ فهذا ببساطة لأنه لم يكن يدرك الشفرة الأدبية التي تكوَّن القرآن على أساسها، وهي في حقيقة الأمر شفرة متميزة جدًّا ودقيقة.

وهذا النمط الأدبي الذي نراه غريبًا عنا بكلّ تأكيد يبدو أنه كان واسع الانتشار في العالم السامي القديم. وقد تساءلَت عالمة الإنسانيات (الأنثروبولوجيا) البريطانية ماري دوجلاس (ت: ٢٠٠٧)، في دراسة حول النُّظُم الدائرية، عن أسباب تعقُّد وصعوبة هذه النظم[١]، وهي تميل إلى أنها

(١) Mary Douglas, *Thinking in Circles*, Yale University Press, New Haven and London, 2007,p. 29.
قد نقلتُ نصّ (نصر) المذكور من كتابه: نقد الخطاب الديني، سينا للنشر، القاهرة، ط٢، ١٩٩٤، ص٢٠٩. (المترجِم).

كانت طريقة الكتاب في العصور القديمة لإبراز ملكاتهم الأدبية وهم يتبارون أيّهم أقدر على نظم النصوص.

ولم يمضِ البحث قُدُمًا حتى نتعرف بدقة على الحدود التاريخية والجغرافية الخاصّة بهذه الأساليب الأدبية، ويبدو على أيّ حال أنها قد مورسَت على مدار أكثر من ألفي سنة في الشرق الأوسط[١]. وبما أن القرآن كان يخاطب جمهورًا من العصور السامية المتأخرة، فليس هناك ما يدعو للدهشة عندما نجده قد اعتمد نفس أسلوب الكتابة المتعارف عليه آنذاك، فكما تحدَّث باللغة العربية التي هي لغة المتلقِّي، فكذلك لجأ لبلاغةٍ تتماشى وقواعد الخطاب السامي، كما كان شأن الكتاب المقدس مِن قبلُ.

(١) Voir, outre l'ouvrage de M. Douglas (note 15), Roland Meynet *Traité de rhétoriquebiblique*, pp. 643-44 ; Laëtitia Coilliot, Michel Cuypers, Yvan Koenig, «La composition rhétorique de trois textes pharaoniques », *BIFAO (Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale)* 109, Le Caire, 2009, pp. 23-59 ; M. Cuypers, « Plainte de Ramsès II à Amon, et réponse d'Amon » à paraître dans R. Meynet et J. Oniszczuk, *Retorica Biblica e Semitica 2*, Centro editoriale dehoniano, Bologna, 2011.